الاحتفالات والفرح . وماذا يفعل العربي ؟ يبكي في القلب او ينفجر من الضغط . ان اعلان ميلاد اسرائيل هو في الوقت ذاته اعلان وفاة الامل الفلسطيني . هذه اللحظة ، اذن ، هي الزمن الفاصل بين حالتين . ولكنك ممنوع من التذكر والذكرى . تكون محاربة الذاكرة الفلسطينية ، اذن ، هدفا صهيونيا ومطلبا قوميا من الدرجة الاولى . لا . ليست صهيونية عربية أن تذكر اغتيال وطنك . وفي هذه اللحظة — المفارقة تلتقي دموع الاضداد . أنت تبكي على وطن ضاع . وهم يبكون على من ضاعوا بحثا عن وطن ولد . تقف في الشارع الذي يلتهمك وتلتهم الغيظ والقهر . ما هو الوطن ؟ أن تحتفظ بذاكرتك — هذا هو الوطن . ان أحزانهم كثيرة . كل أعيادهم حزينة . ولكنه حزن الذكريات البعيدة التي تجعل الفرح الراهن في حجم الكون . في الليل يرقصون بجنون ، يقبلون على الحياة بجنون . لماذا تطالبهم بأن يفهموك . كنت تقول دائما : ليتني أكتب مقالا واحدا دفاعا عنهم .. وأموت . لا يبدو أن النفط العربي سيتيح لك تحقيق هذه الامنية الخبيثة . ان أحزان المنتصرين نفاق وخداع ، وليست دليل رقي بقدر ما هي دليل نقص . لقد حملوا أحزان التاريخ وأفرغوها بك أنت . وأنت مطالب بألا تحزن . ممنوع من الحزن يا عربي !.. هم يحيون ذكرى الحجارة والمومسات وأبطال العدوان ، ويحيون ذكرى ضحاياهم الحقيقية ، وأنت ممنوع من احياء ذكرى أحد أو شيء . أكثر من ذلك : يدعونك للاشتراك في احتفالات انتصارهم عليك . واذا رفضت عوقبت . لم يسمحوا لك باحياء ذكرى ضحايا كفرقاسم . ان ضحاياهم — كل ضحاياهم سقطوا بأيدي سواك . وضحاياك — كل ضحاياك سقطوا بأيديهم . حين تأتي ذكرى كفرقاسم يحاصرون القرية والمقبرة ، ويمنعون الناس من الدخول ، لان الحزن ممنوع . وأكثر من ذلك : يصادرون مزيدا من الاراضي في الجليل .. يترجمون الجليل من جديد بمدينة يهودية « كرمئيل » . يتظاهر بسكان ثلاث قرى عربية سلبت أراضيهم . يحاصرون . يعتقلون ، وتنتصر « كرمئيل » . ويختارون يوم الاحتفال بتدشينها في يوم ذكرى كفرقاسم بالذات . لا استفزازا ولا سادية ولا استهتارا . بل مظاهرة قدرة على القهر . هؤلاء هم اللاجئون ينهون لجوءهم بخلق لاجئين . فماذا يعني قولك — يا صديقي الرسام — ان تشابه اللجوء يجمعنا ؟ لا شيء .. لا شيء الا الابتزاز . اللاجئون الذين شردتهم النازية وجدوا وطنا لهم في فلسطين . واللاجئون الذين شردتهم الصهيونية .. أين يقيمون .. أين ؟ .

[٥]

ذلك الطفل الذي أسلمه رحم أمه الى الارض ، وأسلمته الشرطة الى المنفى ، وأعاده الحنين الى أرض مفترسة ، لم يدرك أنه مطالب بفلسفة الاشياء ، ولم يدرك أن الرياضة الفكرية معيار لجدارة الانتماء أو الانتماء بلا جدارة . لماذا تكون قدرتك على تحديد « ما هو وطنك » ؟ برهانا على شرعية انتمائك الى هذا الوطن . الوطن الحقيقي هو الذي لا يعرف ولا يبرهن . أما الوطن الذي يخرج من معادلة كيماوية أو يخرج من معهد نظري فهو ليس وطنا . ان احساسك بالحاجة الى البرهنة على تاريخ صخرة وقدرتك على اختراع البرهان لا يعطيك أولوية الانتماء على من يعرف ميعاد المطر من رائحة الصخرة . فتلك الصخرة ، بالنسبة اليك ، اجتهاد فكري . وهي ، بالنسبة لصاحبها ، سقف وجدار . والصخرة لا تكون صخرة آذا كانت قابلة للانتقال في زي تمثال تحمله في حقيبتك وتخرجه حجة في المحاضرات . الصخرة تكون صخرة حين تجاورك يا صديقي الباحث عن تمثال ليكون هوية . وماذا تقول لي أيضا ؟ كانت صحراء هذه البلاد ! لا تذهب بعيدا في الاكذوبة . فلسطين لم تكن صحراء في يوم من الايام . لا يحق لك ان تحاسبني على الجدارة . فلست محاميا للرمل أو الحدائق . ما جئت لتدافع عن حق